دلالة ترتيب الأنبياء في القرآن الكريم

د. المثنى عبد الفتاح محمود *

تاريخ وصول البحث: 2009/11/24م   **تاريخ قبول البحث: 2010/8/30م**

ملخص

تناول البحث دلالة ترتيب الأنبياء، وهو بحث قائم على تتبع المواضع التي ذكر فيها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بشكل متوالٍ، فهو يعالج قضية يكثر عنها التساؤل، وهي أننا نجد في كتاب الله تعالى ترتيباً زمانياً للأنبياء، وأحياناً أخرى لا نجد مثل هذا الترتيب، بل نجد أنه يقدم المتأخر على المتقدم زمانياً، فما سر ذلك؟ ولماذا هذا التقديم وذاك التأخير؟ فعلى هذه القضية قام البحث.

ومن خلال استقراء كتاب الله تعالى وجدت أن ترتيب الأنبياء في القرآن لم يخرج عن ثلاثة مسارات، إما أن يكون في آية واحدة، وإمَّا في مقطع قرآني، وإمّا في سورة قرآنية، ووجدت كذلك أنه يوجد نوعان من الترتيب؛ ترتيب زماني وترتيب موضوعي؛ ولذا يدخل هذا البحث في الإعجاز القرآني من جهة في الكشف عن أسرار الترتيب، وفي التفسير الموضوعي من جهة ثانية إذ إنه يتناول موضوعاً بذاته، وفي القصص القرآني من جهة ثالثة ، ومن الله أستمد العون والسداد.

الكلمات الدالة على البحث: (التفسير، الأنبياء، ترتيب الأنبياء، الترتيب الموضوعي للأنبياء، الترتيب الزماني للأنبياء).

Abstract

The research discusses the meaning of the prophets' order, and it is based on following the positions in which the prophets [peace be upon them] have been mentioned consecutively, It deals with a debatable subject, i e, we find a timing order of the prophets in the holy Quran and sometimes no order, but sometimes puts the late ahead the progressive in time, what is the cause?

The researcher has noticed through his reading of the holy Quran that the prophets' order is bound to three ways, it may be in one verse or in a Quranic part or in a complete surah, and also noticed that there are two types of order time order and objective order, so this research includes the Quranic incapacitation on the one hand in discovering the secrets of order and the objective interpretation on the other, because it deals with the subject itself ard in the narration of Quran too. Help ard support is from God.

المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أما بعد.

فموضوعات القرآن الكريم موضوعات فيها الجديد المفيد، فعلى أي باب طرقت وجدت الخير العميم، وفي أي باب طرقت فكرك اكتشفت ما هو إلى قلبك قريب، كيف لا، وهو كتاب الله المفصل على علمه، ومن تلك الموضوعات التي لفتت انتباهي في القرآن الكريم، أننا نجد ذكر الأنبياء في السور المتعددة، ثم نجد أن ترتيبهم أحياناً يكون ترتيباً زمانياً، وأحياناً أخرى لا نجد ذلك الترتيب، بل تقديماً وتأخيراً، فأحببت أن أبحث في هذا الجانب؛ طلباً للعلم والفائدة، واطلاعاً على بعض أسرار القرآن المجيد.

فقمت بقراءة استقرائية تتبعت من خلالها ذكر الأنبياء في القرآن الكريم دون أن أتتبع الآيات التي تتحدث عن الأقوام المكذبين، فرأيت أن القرآن يذكر الأنبياء في آية واحدة، أو في مقطع قرآني واحد، أو في

* أستاذ مساعد، عمان، دار الفن، ص.ب 927187.

سورة كاملة، ووجدت كذلك أن الترتيب القرآني قد التزم مسارين، المسار الزماني وهو أن يذكر الأنبياء حسب ترتيبهم الزماني، والمسار الموضوعي وهو أن يذكر الأنبياء حسب موضوع السياق الذي ورد فيه ذلك الترتيب، وهذان المساران يكشفان لنا دقة القرآن في ترتيبه للأنبياء على مستوى الزمان والموضوع، "ولا يخفى على الباحث المتأمل أن القرآن ليس له عادة معلومة، أو قاعدة مطردة في ذكر القصص والأخبار، بل له في ذلك مناحٍ وأساليب في غاية الدقة، فأحياناً يسرد القصص سرداً حسب ترتيبها في الزمان، وأخرى يعدل عنه إلى ترتيب آخر تقتضيه حكمة البيان[1]، وهو بلا شك لون من ألوان إعجاز القرآن، وقد جعلت البحث بعد المقدمة والتمهيد في ثلاثة مباحث، اشتمل المبحثين الثاني والثالث على مطلبين اثنين، ثم كانت خاتمة البحث.

تمهيد:

بما أن بحثنا هذا قائم على معرفة أسرار ترتيب الأنبياء في القرآن الكريم كان من المناسب أن نقف على أمرين هامين:

الأول: معنى ترتيب الأنبياء في القرآن الكريم.

الثاني: بيان حكم ترتيب الآيات في السور.

أولاً: معنى ترتيب الأنبياء في القرآن الكريم:

المقصود من ترتيبِ الأنبياء ذكر الأنبياء على طريق التوالي في الآيات القرآنية، بحيث يأخذ كل نبي مرتبة ومنزلة من حيث الذكر اللفظي؛ لتحقيق غرض بياني وموضوعي، سواء أكان الترتيب زمانياً أم موضوعياً، وما ورد من معاني الترتيب في القواميس والمعاجم اللغوية يفيدنا في هذا الجانب.

يقول صاحب "العين": "الرُّتُوبُ: الانتصاب كما يُرتِبُ الصَّبيُّ الكعْبَ إرتاباً، والمُصَلِّي يَرْتُبُ أي ينتَصِبُ، والرَّتَبُ: ما أشرَفَ من الأرض كالدَّرَج، ورتبة كقولِك: دَرَجَةٌ، ويجمع على رَتَب كما يقال: دَرَج سواء، والرَّتَبَةُ واحدةٌ من رَتَبات الدَّرَج، ورَتبْتُه ورَتَّبْتُه سواء، المرْتبةُ: المنزلة عند الملوك ونحوها، وتَرَتَّبَ فلانٌ أي: عَلا رُتْبة، أي: دَرَجةً، والمَراتِبُ في الجبال والصحارى من الأعلام التي يُرتَّب عليها العُيُون والرُّقَباءُ"[2]، فالرتبة هي المكان المرتفع المنتصب الواضح المستقل، وهي متصلة برتب أخرى كما ذكر في رتب الدرج، ومراتب الجبال والصحارى، وتكون الرتب متصلة فيما بينها لغرض مقصود، وتسلسل منظوم.

ويقول ابن فارس: "الرتب الشدة والنصب ... والرتب ما أشرف من الأرض كالدرج"[3]

وجاء في أساس البلاغة: "رتب الشيء: ثبت ودام، وله عز راتب ... ورتب الأشياء ورتب الطلائع في المراتب والمراقب، وهي مواضع الرقباء في الجبال ... ومن المجاز: لفلان مرتبة عند السلطان ومنزلة، وهو من أهل المراتب، وهو في أعلى الرتب"[4]

وبناءً على ما تقدم في الجانب اللغوي نستطيع أن نسجل هذه الحقيقة العلمية وهي، لكل نبي مرتبة عالية وواضحة في كتاب الله تعالى على سبيل التوالي اللفظي، فيما يخدم المسار الزماني أو الموضوعي، وكلا المسارين يخدمان الحقيقة الموضوعية التي يدور حولها فلك السورة، وهذه المراتب جاءت متسلسلة منتظمة في السور القرآنية، رتبها منزل الكتاب سبحانه وتعالى، وله في ترتيبها قصد وغرض ينسجم مع الغرض الأساس الذي لأجله أُنزل القرآن الكريم، وهو هداية الناس للخير والرشاد.

ثانياً: حكم ترتيب الآيات في السور:

حكم ترتيب الآيات في السور القرآنية أنه توقيفي من الوحي، ولم يتدخل أحد من البشر في ترتيب آية واحدة أو جزء من آية، ولبيان هذا الأمر فسنقف مع مجموعة من الروايات التي تدل على أن ترتيب الآيات في السورة ترتيب توقيفي، وهي كالآتي:

أولاً: ما رواه الإمام أحمد في "مسنده": "عن عثمان بن أبي العاص، قال: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالساً إذ شخص ببصره، ثم صوبه حتى كاد

أن يلزقه بالأرض، قال: ثم شخص ببصره فقال: "أتاني جبريل – عليه السلام –؛ فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة:﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (90)[5]

ثانياً: ما رواه الإمام مسلم في "صحيحه": "أن عمر بن الخطاب خطب يوم جمعة، فذكر نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم، وذكر أبا بكر، ثم قال: إني لا أدع بعدي شيئاً أهم عندي من الكلالة، ما راجعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه، حتى طعن بإصبعه في صدري، وقال: "يا عمر ! ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر "النساء" ؟ وإني إن أعش أقض فيها بقضية، يقضي بها من يقرأ القرآن، ومن لا يقرأ القرآن".[6]

فهذه الأحاديث وغيرها تدل دلالة قاطعة على أن الآيات في سورها مرتبة ترتيباً توقيفياً، وقد أجمعت الأمة قاطبة على هذا الرأي دون وجود مخالف من العلماء المعتبرين، وهذه طائفة من أقوال علماء الأمة على كون الآيات توقيفية في ترتيبها:

قال القاضي أبو بكر الباقلاني: "والذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله عز وجل، وأمرنا بإثبات رسمه، ولم ينسخه ويرفع تلاوته بعد نزوله، هو هذا الذي بين الدفتين الذي حواه مصحف عثمان – ﷺ–، وأنه لم يُنقص منه شيء، ولا زيد فيه، وأن بيان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان بجميعه بياناً شائعاً ذائعاً، وواقعاً على طريقة واحدة، ووجه تقوم به الحجة، وينقطع به العذر، وأن الخلف نقله عن السلف على هذه السبيل، وأنه قد نسخ منه بعض ما كانت تلاوته مفروضة، وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله سبحانه، ورتبه عليه رسوله من آي السور، لم يقدم من ذلك مؤخَّراً، ولا أخر منه مقدّماً، وأن الأمة ضبطت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ترتيب آي كل سورة ومواضعها، وعرفت مواقعها كما ضبطت عنه نفس القرآن وذات التلاوة"[7].

وقال مكي: "ترتيب الآيات في السور ووضع البسملة في الأوائل هو من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولما لم يأمر بذلك في أول "براءة" تركت بلا بسملة"[8].

وقال محي السنة الإمام البغوي: "ثبت أن القرآن كان على هذا التأليف والجمع في زمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم .. وأن الصحابة – رضي الله عنهم – جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، من غير أن زادوا فيه أو نقصوا منه شيئاً، والذي حملهم على جمعه ما جاء بيانه في الحديث، وهو أنه كان مفرقاً في العسب[9] واللخاف[10]وصدور الرجال؛ فخافوا ذهاب بعضه بذهاب حفظته؛ ففزعوا فيه إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعوه إلى جمعه، فرأى في ذلك رأيهم؛ فأمر بجمعه في موضع واحد باتفاق من جميعهم، فكتبوه كما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غير أن قدموا شيئاً أو أخروا، أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلقن أصحابه ويعلمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا، بتوقيف جبريل صلوات الله عليه إياه على ذلك، وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تُكتب عقيب آية كذا، في السور التي يُذكر فيها كذا، روي معنى هذا عن عثمان – رضي الله عنه –.

فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد، لا في ترتيبه؛ فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على الترتيب الذي هو في مصاحفنا .. ثم كان ينزله مفرقاً على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مدة حياته عند الحاجة، وحدوث ما يشاء الله عز وجل، قال الله سبحانه وتعالى:﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء 106].

فترتيب النزول غير ترتيب التلاوة، وكان هذا الاتفاق من الصحابة، سبباً لبقاء القرآن في الأمة رحمة من الله عز وجل على عباده، وتحقيقاً لوعده في حفظه، كما قال الله عز وجل:﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر 9]"[11].

وقال الإمام الرازي عند تفسير قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة:285]: "ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه؛ فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته"[12].

وقال أبو جعفر ابن الزبير: "اعلم أن ترتيب الآيات في سورها، واقع بتوقيفه صلى الله عليه وآله وسلم وأمره، من غير خلاف في هذا بين المسلمين"[13].

وقال الزركشي: "الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها؛ فترتيبها توقيفي بلا شك، ولا خلاف فيه، ولهذا لا يجوز تعكيسها"[14].

وقال الإمام السيوطي: "الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي، ولا شبهة في ذلك"[15].

فهذه النصوص المجتمعة لتدل على أن ترتيب الآيات في السور توقيفي، ومن ثمَّ فإن البحث عن أسرار ترتيب الأنبياء في القرآن الكريم له ما يبرره من الناحية الأسلوبية البيانية، ومن الناحية الموضوعية.

المبحث الأول

ترتيب الأنبياء في آية واحدة

المقصود من ترتيب الأنبياء في آية واحدة هو ذكر مجموعة من الأنبياء على سبيل التوالي في آية ضمن سياقها، فسجلت في هذا المبحث أربعة مواضع جاء الترتيب فيها زمانياً، وهو يدل على أن الترتيب في آية واحدة يُقصد منه التذكير بالأنبياء على سبيل التعداد الزماني لترسيخ حقيقة يريدها القرآن لدى المخاطبين في ذلك السياق بعينه.

الموضع الأول: (84) سورة آل عمران

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

جاءت هذه الآية ضمن مجادلة أهل الكتاب ومناقشتهم فكان من المناسب ذكر الإيمان بالله والكتاب النازل القرآن الكريم، وما أنزل على الأنبياء السابقين، وخُص بالذكر هؤلاء المذكورون في الآية دون غيرهم لمكانتهم عند أهل الكتاب، يقول الخازن: "إنما خص هؤلاء الأنبياء بالذكر؛ لأن أهل الكتاب يعترفون بوجودهم ولم يختلفوا في نبوتهم"[16]، وكذلك "لأن أهل الكتاب يزعمون أنهم يؤمنون بهم ويتبعونهم، فأراد القرآن أن يبين لهم أن زعمهم باطل؛ لأنهم لن يكونوا مؤمنين بهم إلا إذا آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم"[17]، وكما هو ملاحظ فترتيب ذكرهم في الآية ترتيب زماني؛ وذلك أن سياق الآيات السابقة واللاحقة يتحدث عن عقيدة التوحيد بما يكون مدعاةً لإيمانهم بالنازل على نبينا عليه الصلاة والسلام، وكان من ضمن من ذكر إسماعيل عليه الصلاة والسلام وذلك للتأكيد على وحدة الرسالة في أبناء إبراهيم؛ فليس الأمر خاصاً بأبناء إسحاق عليه السلام، وإنما هو كذلك في أبناء إسماعيل عليه الصلاة والسلام، ومنتهى نسبه الشريف نبيُّنا محمد عليه الصلاة وأتم التسليم، "وقدم إسماعيل لسنه"[18] على إسحاق عليهما الصلاة والسلام.

ويُلاحظ في الآية أنه قد قسم ذكر الأنبياء فيها على جهتين: الجهة الأولى: جهة إبراهيم وذريته من النبيين عليهم الصلاة والسلام.

الجهة الثانية: جهة موسى وعيسى[19] وطائفة – لم تُسم – من النبيين عليهم الصلاة والسلام.

الموضع الثاني: (38) سورة يوسف

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

جاءت هذه الآية على لسان يوسف عليه السلام في إجابة صاحبي السجن، وقد صرح فيها بعقيدته التي يؤمن بها ذاكراً آباءه إبراهيم وإسحاق ويعقوب بترتيب زماني واضح، "ويبدو أنهم كانوا مشهورين في مصر معروفين لدى المصريين"[20]، ولم يذكر ضمن ما ذكر إسماعيل عليه السلام مع أنه من آبائه؛ وذلك أن يوسف عليه السلام هو الأساس في بني إسرائيل، فهو الذي انتقل إلى مصر وأسس لهم وجوداً فيها، ومن ثمَّ كان الحديث عن آبائه بهذا الاعتبار، وخصوصاً أنه بمصر التي بها بدأ تاريخ بني إسرائيل بشكله الحقيقي[21]، وبدونه عليه السلام لما كان لبني إسرائيل وجود في مصر، ولا تعلق لإسماعيل عليه السلام بذلك، فكان عدم ذكره هو الأنسب، والله أعلم، ثم إن يوسف عليه السلام اجتمع له خير لم يجتمع لأحد وهو أنه نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي[22]، وذكرهم من باب شكر الله تعالى على نعمه.

الموضع الثالث: (7) سورة الأحزاب

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

سبب تقديم النبي ﷺ على بقية الأنبياء المذكورين في الآية، أن الآيات المتقدمة كانت حديثاً عنه عليه الصلاة والسلام، ومن ثمَّ فأن يكون متقدماً هو الأولى، وبخاصة في ذكر أخذ الميثاق إذ فيه ما فيه من الإلهاب والتهييج بأن يكون في زمرة النبيين، ثم يعطف عليه المتقدمين زماناً من أولي العزم من الرسل توثيقاً وزيادةً في تثبيت الميثاق في نفسه عليه الصلاة والسلام، وهو أدعى لتمسك أتباعه والاستمرار على الميثاق.

قدّم الله محمد ﷺ على نوح فمن بعده؟ قلت: هذا العطف لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم وذراريهم، فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل هؤلاء المفضلين: قُدِّم عليهم لبيان أنه أفضلهم، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه؛ فإن قلت: فقد قدم عليه نوح عليه السلام في الآية التي هي أخت هذه الآية، وهي قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى:13] ثم قدم على غيره.

قلت : مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك، وذلك أنّ الله تعالى إنما أوردها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة فكأنه قال: شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم، وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير"[23].

ولا يقال هنا: إن الترتيب ليس زمانياً، وذلك لسببين أنه من قبيل خطابه عليه الصلاة والسلام لا من قبيل الحديث عنه حال غيبته، الثاني أنه كان حياً وللحي حكم غير حكم الأموات، ومن ثمَّ لا يدخل في الترتيب الزماني لأنه من الحاضر لا من الزمن الماضي.

الموضع الرابع: (13) سورة الشورى

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾

والترتيب هنا واضح غير أنه التفت في الخطاب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذكر نوح عليه السلام، "والالتفاتُ[24] إلى نون العظمةِ؛ لإظهار كمالِ الاعتناء بإيحائه، وهو السرُّ في تقديمه على ما بَعده – مع تقدّمه عليه زماناً –، وتقديمُ توصيةِ نوحٍ عليهِ السَّلامُ للمسارعة إلى بيان كونِ المشروعِ لهم ديناً قديماً ، وتوجيه الخطابِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيهِ على أنَّه تعالى شرعَهُ لهم على لسانِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ"[25].

يقول ابن عاشور : "وتعقيب ذكر دين نوح بما أُوحي إلى محمّد عليهما السلام؛ للإشارة إلى أن دين الإسلام هو

الخاتم للأديان، فعطف على أول الأديان جمعاً بين طرفي الأديان، ثم ذُكر بعدهما الأديانُ الثلاثة الأخَر؛ لأنها متوسطة بين الدينين المذكورين قبلها. وهذا نسج بديع من نظم الكلام، ولولا هذا الاعتبار لكان ذكر الإسلام مبتدأ به كما في قوله: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده} [النساء : 163]، وقوله: {وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾ الآية في سورة [الأحزاب:7]"[26].

المبحث الثاني

ترتيب الأنبياء في مقطع قرآني

- السور القرآنية تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: يتكون من عدة مقاطع وهذا في غالب السور، وتكون المقاطع فيه تدور حول ركيزة معينة، ومحور واحد، ويشكل كل مقطع في السورة بُعداً دلالياً مقطعياً يخدم السياق العام للسورة. **القسم الثاني:** تكون السورة فيه عبارة عن مقطع واحد، وتدور حول موضوع واحد، وغالب هذا القسم نجده في قصار السور.

وقد سجلت في هذا المبحث ثلاثة مواضع في الترتيب الزماني، بينما في الترتيب الموضوعي فسجلت سبعة مواضع، و يدل هذا على أن المقطع القرآني يركز على وحدة الموضوع، ويتناول المسائل من جميع جوانبها المختلفة، وهو يختلف عن ترتيب الأنبياء في آية واحدة، فالأمر هناك مختلف إذ المقصود في الغالب الأعم ذكر الأنبياء المجرد، والتذكير بهم عليهم الصلاة والسلام، أما هنا فالمقطع القرآني يناقش حقيقة من الحقائق، وقضية من القضايا فيما يخص جانباً معيناً من حياة الأنبياء، فكان الترتيب الموضوعي هو الأنسب والأقرب للمقصود.

أولاً: الترتيب الزماني:

الموضع الأول: سورة البقرة (124-141)

يمتد هذا المقطع من قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ويتحدث عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، باعتباره الأصل الأصيل والشجرة المباركة التي أثمرت أبناء إسماعيل وإسحاق – عليهم السلام – من النبيين، ونجد في الآيات اتحاداً في ذكر الأنبياء على ترتيب زماني واحد؛ فلا نجد في أيٍّ منها أيَّ تقديم أو تأخير، والملحوظ أن هذا المقطع يتحدث عن أبناء إبراهيم عليهم السلام، الذي يعتز بالانتساب إليه اليهود والنصارى والعرب جميعاً، فكان التزام الترتيب الزماني هو الأولى؛ لأن طبيعة الموضوع الذي يتناوله هذا المقطع يقضي بأن يذكر أولئك الأنبياء على ترتيب زماني واحد، ثم يخص بالذكر أشهر أنبياء بني إسرائيل من نسل إسحاق عليه السلام وهما موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، "وتخصيصُهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى"[27]. وذكر إسماعيل عليه الصلاة والسلام يقضي على كل توهم أن الآيات تخص بني إسرائيل، فهي إشارة أبلغ من العبارة إلى سيد المرسلين صلوات ربي وسلامه عليه، ولذا لم نجد ذكراً لإسماعيل عليه السلام في سورة يوسف ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ لأن تلك الآية تذكر خبراً مجرداً عن أي ملمح آخر[28]، ومن ثمَّ لم يكن هناك داعٍ أن يذكر إسماعيل عليه السلام وإن كان من آبائه.

ونجد أنه قد ورد ذكر هؤلاء الأنبياء في ثلاث آيات في هذا المقطع كلها قد التزم الترتيب الزماني وهي:

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:133]

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى

وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:136]

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:140]

الموضع الثاني: سورة العنكبوت (14-40)

أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

نجد أن هذا المقطع يعرض لمجموعة من الأنبياء بينهم قواسم مشتركة في تصدي أقوامهم لهم، "ففي هذا الشوط يعرض نماذج من الفتن التي اعترضت دعوة الإيمان في تاريخ البشرية الطويل من لدن نوح عليه السلام، يعرضها ممثلة فيما لقيه الرسل حملة دعوة الله منذ فجر البشرية، مفصلاً بعض الشيء في قصة إبراهيم ولوط، مجملاً فيما عداها.. وفي هذا القصص تتمثل ألوان من الفتن، ومن الصعاب والعقبات في طريق الدعوة"[29].

وهي تبدأ بالحديث عن الأب الثاني نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾(14)}، مثنية بذكر الأب الثالث إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (16)}، ثم ذكر لإيمان لوط بإبراهيم: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (26)}، وهبة الله تعالى لإبراهيم إسحاق ويعقوب: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...﴾(27)} وذلك في سياق الحديث عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وكونهما هبةً له، لا حديثاً عنهما عليهما السلام، ثم عودة للوط عليه السلام وما جرى له مع قومه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (28)}، وبعد ذلك ذكر شعيباً عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (36)}، ثم عطف على عذاب مدين قوم شعيب عادا وثمود دون أن يذكر رسلهم[30]: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (38)، وفي ختام المقطع ذكر قارون وفرعون وهامان مع ذكر إرسال موسى عليه السلام لهم: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ (39)، فنجد في هذا المقطع تسلسلاً زمانياً دون تقديم أو تأخير؛ وذلك أن المقطع يتحدث عن لون من معين من الفتن التي تعرض لها أولئك الأنبياء، وتعذيب الله لأولئك الأقوام الذين تصدوا للدعوة، وبالتالي فالترتيب الزماني لهؤلاء الأنبياء هو المقصود؛ لأنه يؤدي غرض الاعتبار والاتعاظ، ولا داعي للتقديم والتأخير مادام لا الأمر على هذا الحال، والله أعلم.

الموضع الثالث: سورة الحديد (25-27)

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

هذا مقطع من المقاطع القصيرة التي تتحدث عن حقيقة من الحقائق القرآنية، وللبقاعي كلمات حول هذا

المقطع وسر الترتيب يقول – رحمه الله تعالى –: "ولما عم الرسل جامعاً لهم في البينات، فكان السامع جديراً بأن يتوقع التعيين، وخص من بينهم من أولي العزم أبوين جامعين في الذرية والرسالة؛ لأن ذلك أنسب لمقصود السورة لتبيين فضل محمد صلى الله عليه وسلم الذي عم برسالته عموماً لم يكن لأحد غيره، فنوح عليه السلام أرسل لأهل الأرض لكونهم كانوا على لسان واحد، وعموم إبراهيم عليه السلام بأولاده عليهم السلام، ونص بعدهما على عيسى عليه السلام بما له من عموم الرسالة إلى بني إسرائيل بالنسخ والتشريع، ثم من نزوله في هذه الأمة بالتقرير والتجديد"[31].

فهذا المقطع نجد فيه ذكراً لأصلين وفرع، وبالطبع كان الالتزام بالترتيب الزماني هو الأولى، لأنه لا يقدم الفرع على الأصول إلا لعلة ظاهرة، ونكتة مقصودة، وبانتفائها ينتفي التقديم.

ثانياً: الترتيب الموضوعي: في هذا النوع سجلت سبعة مواضع، وهذه المواضع تدل على أن العناية بالترتيب مرتبطة بموضوع السورة ومحورها الذي تدور حوله.

الموضع الأول: سورة النساء (163-164)

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ في هاتين الآيتين نجد خطاباً من الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام بأنه لم يكن بدعاً من الرسل وإنما أوحي إليه كما أوحي إلى جميع الرسل، وقد "بدأ بذكر نوح عليه السلام؛ لأنه كان أبا البشر مثل آدم عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات:77]؛ ولأنه أول نبي من أنبياء الشريعة، وأول نذير على الشرك، وأول من عذبت أمته لردِّهم دعوته، وأهلك أهل الأرض بدعائه، وكان أطول الأنبياء عمرًا .. ولم يصبر نبيٌّ على أذى قومه ما صبر هو على طول عمره"[32]، ثم بعد ذلك "بدأ بذكر إبراهيم بعد التكرير [33] لمزيد شرفه؛ ولأنه الأب الثالث للأنبياء عليهم الصلاة والسلام"[34]، ثم عطف باقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على هذين النبيين، لكننا نجد في الآية الأولى من هذا المقطع تقديماً لعيسى عليه الصلاة والسلام على من ذكر بعده من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد تقديماً لداود على موسى عليهما السلام، وهذا بلا شك له أسبابه وعلله المعنوية بما يرتبط بموضوع السياق الذي جاء فيه المقطع؛ وذلك لأنه قد "خص تعالى بالذكر هؤلاء تشريفاً وتعظيماً لهم، وبدأ بإبراهيم؛ لأنه الأب الثالث، وقدم عيسى على من بعده تحقيقاً لنبوته، وقطعاً لما رآه اليهود فيه، ودفعاً لاعتقادهم، وتعظيماً له عندهم، وتنويهاً باتساع دائرته ... قيل: وقدم سليمان في الذكر على داود لتوفر علمه، بدليل قوله: ﴿ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾، والذي يظهر أنه جمع بين عيسى وأيوب ويونس؛ لأنهم أصحاب امتحان وبلايا في الدنيا، وجمع بين هارون وسليمان؛ لأن هارون كان محبباً إلى بني إسرائيل معظماً مؤثراً، وأما سليمان فكان معظماً عند الناس قاهراً لهم مستحقاً له ما ذكره الله تعالى في كتابه، فجمعهما التحبيب والتعظيم. وتأخر ذكر داود لتشريفه بذكر كتابه، وإبرازه في جملة مستقلة له بالذكر ولكتابه، فما فاته من التقديم اللفظي حصل به التضعيف من التشريف المعنوي"[35].

ويُضاف على ما تقدم أننا لم نجد طعناً من قبل يهود في موسى وداود عليهما السلام كما وجدناه في حق عيسى عليه السلام، وقد قدم الآلوسي جوابين عن تقديم عيسى عليه السلام على بقية الأنبياء، أحدهما معنوي – وهو الراجح – والآخر لفظي – وهو مرجوح؛ ولذا ذكره على سبيل التمريض – يقول – رحمه الله تعالى –:"وقدم عيسى عليه السلام على من بعده تحقيقاً لنبوته، وقطعاً لما رآه اليهود فيه، وقيل: ليكون الابتداء

بواحد من أولي العزم بعد تغير صفة المتعاطفات إفراداً وجمعاً"[36]، ويقول ابن عجيبة في البحر المديد: " ثم قال تعالى: ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ أي: الأحفاد، وهم أنبياء بني إسرائيل، {وعيسى وأيوب وهارون وسليمان}، وإنما خصهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تعظيمًا لهم، فإن إبراهيم أولُ أُولي العزم منهم، وآخرهم عيسى عليه السلام، والباقون أشراف الأنبياء ومشاهيرهم"[37]. فكأني به يريد أن يقول – رحمه الله تعالى –: قدم آخر أولي العزم من الرسل على بقية الرسل، عطفاً على أول أولي العزم من الرسل وهو إبراهيم عليه السلام، وهو جواب مرضي إذا أضيف لما تقدم، والله المستعان.

الموضع الثاني: سورة الأنعام: (74-90)

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

هذه الآيات جاءت في مقطعٍ يتحدث عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وبالتالي فإن ما جاء في هذه الآيات يخصه سواء ذلك فيما يتعلق بأبنائه أم أحفاده من الأنبياء، وقد وقف مع الترتيب القرآني لهذه الطائفة من الأنبياء غير واحد من المفسرين، كلٌ منهم حاول أن يكشف عن سر الترتيب الموضوعي لهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وأبتدئ بما ذكره الرازي – رحمه الله تعالى – في تفسيره جواباً عن سر الترتيب: "أقول: عندي فيه وجه من وجوه الترتيب؛ وذلك لأنه تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل. من المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق: الملك السلطان والقدرة، والله تعالى قد أعطى داود وسليمان من هذا الباب نصيباً عظيماً.

والمرتبة الثانية: البلاء الشديد والمحنة العظيمة، وقد خص الله أيوب بهذه المرتبة والخاصية.

والمرتبة الثالثة: من كان مستجمعاً لهاتين الحالتين، وهو يوسف عليه السلام، فإنه نال البلاء الشديد الكثير في أول الأمر، ثم وصل إلى الملك في آخر الأمر.

والمرتبة الرابعة: من فضائل الأنبياء عليهم السلام وخواصهم قوة المعجزات وكثرة البراهين والمهابة العظيمة والصولة الشديدة، وتخصيص الله تعالى إياهم بالتقريب العظيم والتكريم التام، وذلك كان في حق موسى وهرون.

والمرتبة الخامسة: الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا، وترك مخالطة الخلق، وذلك كما في حق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، ولهذا السبب وصفهم الله بأنهم من الصالحين.

والمرتبة السادسة: الأنبياء الذين لم يبق لهم فيما بين الخلق أتباع وأشياع، وهم إسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط. فإذا اعتبرنا هذا الوجه الذي راعيناه ظهر أن الترتيب حاصل في ذكر هؤلاء الأنبياء عليهم السلام بحسب هذا الوجه الذي شرحناه"[38].

ويجيب صاحب المنار: "فالقسم الأول: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، والمعنى الجامع بين هؤلاء أن الله تعالى آتاهم الملك والإمارة والحكم والسيادة مع النبوة والرسالة، وقد قدم ذكر داود وسليمان لأنهما كانا ملكين غنيين منعمين، وذكر بعدهما أيوب ويوسف، وكان الأول أميراً غنياً عظيماً محسناً، والثاني وزيراً عظيماً حاكماً متصرفاً، ولكن كلاً منهما قد ابتلي بالضراء فصبر كما ابتلي بالسراء فشكر، وأما موسى وهارون فكانا حاكمين ولكنهما لم يكونا ملكين، فكل زوجين من هؤلاء الأزواج الثلاثة يمتاز بمزية، والترتيب بين الأزواج على طريق التدلي في نعم الدنيا، وقد يكون على طريق الترقي في الدين، فداود وسليمان كانا أكثر تمتعاً بنعم الدنيا، ودونهما أيوب ويوسف، ودونهما موسى وهارون، والظاهر أن موسى أفضل في هداية الدين وأعباء النبوة من أيوب ويوسف،

وأن هذين أفضل من داود وسليمان بجمعهما بين الشكر في السراء والصبر في الضراء – والله أعلم – وقد قال تعالى بعد ذكر هؤلاء: ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي: بالجمع بين نعم الدنيا ورياستها بالحق وهداية الدين وإرشاد الخلق وهذا كما قال الله تعالى عن أحدهم وهو يوسف: ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾ [يوسف:22] فهو جزاء خاص، بعضه معجل في الدنيا، أي: ومثل هذا الجزاء في جنسه يجزي الله بعض المحسنين بحسب إحسانه في الدنيا قبل الآخرة، ومنهم من يرجئ الله جزاءه إلى الآخرة.

والقسم الثاني: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس وهؤلاء قد امتازوا – عليهم الصلاة والسلام – بشدة الزهد في الدنيا والإعراض عن لذاتها والرغبة عن زينتها وجاهها وسلطانها؛ ولذلك خصهم هنا بوصف الصالحين، وهو أليق بهم عند مقابلتهم بغيرهم وإن كان كل نبي صالحاً ومحسناً على الإطلاق.

والقسم الثالث: إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً، وأخر ذكرهم لعدم الخصوصية، إذ لم يكن لهم من ملك الدنيا أو سلطانها ما كان للقسم الأول، ولا من المبالغة في الإعراض عن الدنيا ما كان للقسم الثاني، وقد قفّى على ذكرهم بالتفضيل على العالمين الذي جعله الله تعالى لكل نبي على عالمي زمانه"[39].

وقد قام ابن عاشور بمحاولة أخرى لا تقل عما قام به كلٌّ من الرازي ومحمد رشيد رضا في بيان أسرار هذا الترتيب فقال – رحمه الله –: "واعلَمْ أنّي تطلّبت كشف القناع عن وجه الاقتصار على تسمية هؤلاء الأنبياء من بين سائر الأنبياء ... فلم يتّضح لي وتطلّبت وجه ترتيب أسمائهم هذا التّرتيبَ ، وموالاة بعض هذه الأسماء لبعض في العطف فلم يَبْدُ لي ، وغالب ظنّي أنّ من هذه الوجوه كون هؤلاء معروفين لأهل الكتاب وللمشركين الّذين يقتبسون معرفة الأنبياء من أهل الكتاب ، وأنّ المناسبة في ترتيبهم لا تخلو من أن تكون ناشئة عن الابتداء بذكر أنّ إسحاق ويعقوب موهبة لإبراهيم وهما أب وابنه ، فنشأ الانتقال من واحد إلى آخر بمناسبة للانتقال ، وأنّ توزيع أسمائهم على فواصل ثلاث لا يخلو عن مناسبة تجمع بين أصحاب تلك الأسماء في الفاصلة الشّاملة لأسمائهم ... فلمّا ذكر إسحاق ويعقوب أردف ذكرُهما بذكر نبيين من ذرّيّة إسحاق ويعقوب ، وهما أب وابنه من الأنبياء هما داوود وسليمان مبتدئاً بهما على بقيّة ذرّيّة إسحاق ويعقوب ، لأنّهما نالا مَجْدَين عظيمين مجدِ الآخرة بِالنّبوءة ومجد الدنيا بالملك . ثمّ أردف بذكر نبيين تماثلاً في أنّ الضرّ أصاب كليهما وأنّ انفراج الكرب عنهما بصبرهما . وهما أيّوب ويوسف . ثمّ بذكر رسولين أخوين هما موسى وهارون ، وقد أصاب موسى مثلُ ما أصاب يوسفَ من الكيد له لقتله ومن نجاته من ذلك وكفالته في بيت المُلك ، فهؤلاء الستّة شملتهم الفاصلة الأولى المنتهية بقوله تعالى: {وكذلك نجزي المحسنين}.

ثمّ بذكر نبيين أب وابنه وهما زكرياء ويحيى، فناسبَ أن يذكر بعدهما رسولان لا ذرّيّة لهما، وهما عيسى وإلياس، وهما متماثلان في أنّهما رفعا إلى السّماء. فأمّا عيسى فرفْعه مذكور في القرآن ، وأمّا إلياس فرفعه مذكور في كتب الإسرائيليين ولم يذكره المفسّرون من السلف. وابتدىء بعيسى عطفاً على يحيى لأنّهما قريبان ابنا خالة؛ ولأنّ عيسى رسول وإلياس نبيء غير رسول، وهؤلاء الأربعة تضمّنتهم الفاصلة الثّانية المنتهية بقوله تعالى:﴿كلّ من الصّالحين﴾. وعُطف اليسع لأنّه خليفة إلياس وتلميذه، وأدمج بينه وبين إلياس إسماعيل تنهية بذكر النّبي الّذي إليه ينتهي نسب العرب من ذرّيّة إبراهيم. وختموا بيونس ولوط؛ لأنّ كلاً منهما أرسل إلى أمّة صغيرة. وهؤلاء الأربعة تضمّنتهم الفاصلة الثّالثة المنتهية بقوله: ﴿وكلاً فضّلنا على العالمين﴾"[40].

وهذه الثلاثية في توجيه ترتيب ذكر الأنبياء في هذه الآيات نجد أنها تتقارب حيناً وتتباعد حيناً آخر لكنها تشترك في عمق النظرة، ووضوح الرؤية، وجمال الأسلوب في توجيه كلام رب العالمين.

الموضع الثالث: (58) سورة مريم

نجد أن هذه السورة جاء فيها ذكر مجموعة من الأنبياء شكل ذكرهم مقطعاً كبيراً اقترب من ثلثيها، ونجدها قد ركزت على موضوع الرحمة الإلهية التي حفت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وسنقف معهم واحداً واحداً نتلمس أسرار الترتيب القرآني:

1- امتازت السورة ببراعة الاستهلال فبدأت بصورة واضحة من صور رحمة الله بأنبيائه عليه السلام {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2)} وأنه دعا ربه بأن يرزقه غلاماً بعد أن بلغ من الكبر عتياً وامرأته عاقر، وكان له ما دعا، وهذا من رحمة الله الخاصة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وذكر يحيى عليه السلام باعتباره بشارة أبيه زكريا عليه السلام، ولما كان العقل يتقبل ولادة العاقر أكثر من تقبله ولادة المرأة من غير زوج، كانت قصة زكريا عليه السلام كالتهيئة لقصة مريم.

2- وبعد ذكر رحمة الله بالأب والابن، كان مناسباً أن تُذكر رحمة الله الخاصة بالأم والابن {...وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا(21)}، ولما كانت ولادة عيسى عليه السلام معجزة "جعلت – السورة – هذا الإعجاز بين يدي قصة زكريا وابنه يحيى؛ لأن ولادة يحيى كانت هي الأخرى معجزة، فقد كان شيخاً وهن عظمه، وكانت الوالدة عجوزاً عقيماً، فمن أخصب العاقر، وأحيى الشيخ، ومنَّ بالولد؟"[41].

3- وبعد ذكر رحمة الآباء بالأبناء كان الانتقال لبيان رحمة الأبناء بالآباء مناسباً لموضوع السورة، فذكرت رحمة إبراهيم عليه السلام بأبيه لهدايته وإنقاذه مما هو فيه، وكان نتيجةً لتلك الرحمة المتأصلة في أنبياء الله تعالى، أن يُرزق إبراهيم عليه الصلاة وأتم التسليم بالولد، وبذلك يكون قد جمع الرحمتين بالأصول والفروع، وتوسطه في الترتيب يناسب هذا المعنى؛ ولذا نجد الآية في نهاية الحديث عنه تقول: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (50) أي أبناء إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فالآية تذكرنا بأنه الأصل، وأنه عليه الصلاة والسلام منه قد انبثقت جذوة الرحمة[42].

4- وبعد أن ابتدأ المقطع بالفرع ثم توسط الأصل، عاد الترتيب لذكر مثال آخر على الرحمة المتوارثة في هذه الذرية الطيبة، فذكر رحمة الله بهبة الأخ بأخيه، وهي هبة هارون لأخيه موسى عليهما السلام ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (53).

5- ثم ينتقل بنا الترتيب القرآني لبيان لون جديد من الرحمة وهي رحمة أبينا إسماعيل عليه السلام بأهله ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾(55)، وهي رحمة مرتبطة بالبيت النبوي، وأثره فيمن بعده وخصوصاً نبينا صلى الله عليه وآله وسلم[43].

6- ثم ينقلنا القرآن في ترتيبه للأنبياء بذكر إدريس عليه السلام وهو آخرهم ذكراً وأسبقهم زماناً على ما اتفق عليه المفسرون، وسر ذلك الترتيب – والله أعلم بما ينزل – أن الله تعالى أراد أن يذكر مثالاً على الرحمة بأنبيائه دون تفصيل، بل أراد أن يجعلها مجملة، وخير مثال على ذلك نبي الله إدريس عليه السلام، ونجد أن القرآن قد اكتفى بالإخبار عنه ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (57)} دون تفصيل لأمر الرفع، وإنما اكتفاء يفهم أبعاده من نهل من ينابيع الرحمة القرآنية، وفائدة ذلك الختم بنبي الله إدريس أن موضوع هذه السورة الدائر حول الرحمة – وخصوصاً رحمة الله بمريم وابنها عليه السلام الذي فصلته السورة أكثر ما فصلت –؛ ليبين لنا أن الرفع الذي كان لإدريس عليه السلام سابقاً سيكون لعيسى عليه السلام لاحقاً، وهي رحمات متواصلة لا تنقطع ولا تتوقف بل هي رحمات تترى بعباد الله. وبهذا يظهر لنا بعض أسرار هذا الترتيب القرآني المعجز فيما يظهر والله أعلم.

الموضع الرابع: (48-92) سورة الأنبياء

وترتيب الأنبياء في هذه السورة مرتبط كذلك بسياقها وموضوعها، فبدأت السورة بجولات واسعة في محاجة ومجادلة مشركي قريش، وبعد ذلك بدأت بذكر الأنبياء فكانت البداية بذكر موسى وهارون عليهما السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾(48)}، ثم بعد ذلك ثنى بذكر أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع الإشارة إلى تقدمه الزماني فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (51)}، وهذه الإشارة تدل على إرادة المولى سبحانه في تقديم ذكر موسى وهارون عليهما السلام على أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وذلك لحكمة ربانية ونكتة بيانية، وهي أن موسى عليه السلام على طريق إبراهيم، وكان تركيز السورة على قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعوة أبيه وقومه لترك الأصنام، وموقف قومه من دعوته الذي يتشابه مع موقف العرب من دعوة نبينا محمد صلوات ربي وسلامه عليه، ومن ثمَّ تكون دعوة محمد متواصلة مع دعوة هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وكان من المناسب أن يذكر لوطاً بعد ذكر إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، خصوصاً وهو الذي شاركه بالهجرة إلى فلسطين هروباً من أرض الشرك والمشركين،﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (71)، وبعد هذه الهجرة أنجى الله لوطاً من تلك القرية التي تعمل الخبائث.

وبعد قصة لوط عليه السلام تذكر الآيات قصة نوح عليه السلام: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (76)}، وسر هذا الترتيب – أي ذكر نوح بعد لوط – أن لوطاً ونوحاً عليهما السلام قد أنجاهما الله من قريتهما وكان العذاب متشابهاً وذلك بالإغراق؛ فكان من المناسب ذكر نوح عليه السلام بعد لوط مع الإشارة إلى تقدمه الزماني {من قبل}، فذكر الإغراق الخاص بقوم لوط على ذنب خاص وهو إتيان الفاحشة، ثم عطف عليه ذكر الإغراق العام بسبب الذنب العام وهو الشرك وما يلحق به من ذنوب، وذلك تنبيهاً على عظيم الامتلاء على ذنب واحد من أمة واحدة.

ثم ذكر القرآن داود وسليمان بقضية خاصة وهي الحكم في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (78) ، "ولما كان ربما قيل: لم قدم إبراهيم ومن معه على نوح وهو أبوهم ومن أولي العزم؟ وموسى وهارون على إبراهيم وهو كذلك؟ أشار بقصة داود وسليمان – على جميعهم الصلاة والسلام – إلى أنه ربما يفضل الابن الأب في أمر، فربما قدم لأجله وإن كان لا يلزم منه تقديمه مطلقاً، مع ما فيها من أمر الحرث الذي هو أنسب شيء لما بعد غيض الماء في قصة نوح عليه السلام"[(44)].

والقصد من هذا الترتيب الانتقال إلى أنبياء لم يقع بينهم وبين قومهم مصادمة ومنازعة وإنما ملك وسلطان، وفائدة ذلك مصادرة أي فهم مغلوط قد يطرأ في الذهن بأن الأنبياء في حال خصومة مع أقوامهم على الدوام، وأوضح مثال يجلي لنا ذلك قصة داود وسليمان عليهما السلام، وما أتبعه القرآن من ذكرٍ لأمر الجبال والطير والريح بما يجلي هذه الحقيقة.

وأردف هذه القصة قصة أيوب عليه السلام وما أصابه من ضر: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (83)}، وفائدة ذلك معرفة الأحوال المتقابلة التي مر بها الأنبياء، فمن ملك وسلطان، إلى ضر وابتلاء، فكان مناسباً أن يذكر بعد قصة داود وسليمان قصة أيوب عليهم السلام جميعاً.

ولما كان أيوب عليه السلام إمام الصابرين حسُن أن يذكر القرآن بعد قصته طائفة من الأنبياء الصابرين بشكل مجمل دون تفصيل {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85)}.

ثم يكرُّ على قصة يونس عليه السلام بشيء من التفصيل يسير بما يناسب المقام: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ

مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (87)، وإذا كان قد نادى يونس ربه وهو في بطن الحوت فاستجاب له، حسُن أن يذكر من ناداه وهو خارج بطن الحوت وهو زكريا عليه السلام فاستجاب له: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (89)}؛ وذلك كي لا يُظن أن الاستجابة كانت لأمر ضروري فقط، وإنما هي لأمر حاجي كذلك، ثم كان من المناسب ذكر قصة مريم وابنها عيسى عليه السلام: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آَيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (91)، وذلك بعد قصة زكريا ورزقه الولد بعد يأسه منه، فإذا كان قد رزق زكريا عليه السلام الولد بعد يأس، فقد رزقت مريم الولد بعد استحالة، والله سبحانه وتعالى يخرق العادة لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، وقصة مريم مناسبة كذلك باعتبارها الخاتم لقصص الأنبياء السابقين لنبينا عليه الصلاة والسلام زمانياً والله أعلم.

الموضع الخامس: (7–58) سورة النمل

مهدت السورة بمقدمة تناولت فيها أمر الوحي: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآَنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (6) ، فبدأت بعد هذه المقدمة بخبر موسى عليه الصلاة والسلام:﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آَنَسْتُ نَارًا سَآَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آَتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (7)، ثم ثنت بخبر داود وسليمان: ﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (15)، وهؤلاء الأنبياء الثلاثة جاء ترتيبهم ترتيباً زمانياً ويُلحظ فيه البعد الموضوعي، فذُكرت قصة موسى بإيجاز لتكون كالتمهيد لقصة داود وسليمان، ثم ذكرت قصة داود وسليمان عليهما السلام لتكون كالتفصيل لقصة موسى عليه السلام، فموسى هو الأصل لهذين النبيين وهما امتداد له، فكان ذكر الأصل وما حصل له مع قومه للاعتبار بمآل الأتباع، ثم بعد ذلك ثلث بقصة صالح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾(45)، وختم بقصة لوط عليه السلام . مع تقدمهما الزماني .: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (54)}؛ وذلك "لما ذكر قصة موسى وداود وسليمان، وهم من بني إسرائيل ، ذكر قصة من هو من العرب، يذكر بها قريشاً والعرب، وينبههم أن من تقدم من الأنبياء من العرب كان يدعو إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، ليعلموا أنهم في عبادة الأصنام على ضلالة، وأن شأن الأنبياء عربهم وعجمهم هو الدعاء إلى عبادة الله"[45]، ويُلاحظ كذلك التقارب المكاني بين عذاب قوم صالح وعذاب قوم لوط، وفي ذلك تلويح بعصا العذاب لمن كفر من قريش، وقد وقف البقاعي مع ترتيب الأنبياء في هذه السورة فقال: "واقتصر في هذه السورة على هذه القصص لما بينها من عظيم التناسب المناسب لمقصود السورة، فابتدأ بقصة أطبق فيها الأباعد على الكفران فأهلكوا، والأقارب على الإيمان فأنجوا، وثنى بقصة أجمع فيها الأباعد على الإيمان، لم يتخلف منهم إنسان، وثلث بأخرى حصل بين الأقارب فيها الفرقان، باقتسام الكفر والإيمان، وختم بقصة تمالأ الأباعد فيها على العصيان، وأصروا على الكفران، فابتلعتهم الأرض ثم غطوا بالماء كما بلغ الأولين الماء فكان فيه التواء"[46]، وبهذا يظهر لنا سر الترتيب في هذه السورة.

الموضع السادس: (75– 148) سورة الصافات

أما عن هذه السورة فقد ذكر فيها مجموعة من القصص وقع في عمومها الترتيب الزماني إلا تأخير ذكر لوط عليه السلام ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (133)}، والجواب عن ذلك أنه "لما أتم ما أراد سبحانه من أمور المحسنين من ذرية إبراهيم عليه السلام المرسلين إلى ذريته في التسلية والترجية، وقدمهم؛ لأن المنة عليهم منة عليه، والإنسان بابنه أسر منه بقريبه،

وهم الذين أظهر الله بهم وما ترك عليه من لسان الصدق في الآخرين. أتبعهم قصة ابن أخيه مع أهل بلاد الأردن من غير قومهم"[47]، ثم ذكر يونس عليه السلام وما جرى له مع قومه: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (139)}، ولعل ما ذكره الرازي – رحمه الله تعالى – في هذا الجانب يُعد مرضياً في الجواب عن سر تأخير يونس عليه السلام وجعله خاتمةً لذكر الأنبياء في هذه السورة، "وإنما صارت هذه القصة خاتمة للقصص؛ لأجل أنه لما لم يصبر على أذى قومه وأبق إلى الفلك وقع في تلك الشدائد فيصير هذا سبباً لتصبر النبي صلى الله عليه وسلم على أذى قومه"[48].

الموضع السابع: (17–48) سورة ص

في هذه السورة ذكر المولى سبحانه وتعالى أنبياءه على ثلاث صور:

الصورة الأولى: صورة التفصيل، وتمثل ذلك في قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، وكان الابتداء في قصة هذين النبيين لما احتوته من حديث عن أمر القضاء والحكم والملك، وهي صورة تمثل جانباً مهماً من جوانب تاريخ الأنبياء والمرسلين، فيها تصحيح لمفاهيم القوم عن الأنبياء والمرسلين، وأنهم ليسوا فقراء فحسب بل منهم الملوك الحكام.

الصورة الثانية: صورة التفصيل المجمل، وتمثل ذلك في قصة أيوب عليه الصلاة والسلام، النبي الصابر على المرض.

الصورة الثالثة: صورة الإجمال، وتمثل ذلك في مجموعتين من الأنبياء:

المجموعة الأولى: تمثلت في إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام.

المجموعة الثانية: تمثلت في إسماعيل واليسع وذا الكفل.

والمناسبة الموضوعية في ترتيب أولئك الأنبياء أنه بعد أن ذكر قصة داود وسليمان عليهما السلام في أمر القضاء والملك، ذكر قصة أيوب الصابر، ومناسبة ذلك التقابل في ذكر ابتلاء الأنبياء؛ فمنهم من ابتلي بالملك فصبر، ومنهم من ابتلي بالمرض فصبر، "لما أمر نبيه بالصبر، وذكر ابتلاء داود وسليمان، وأثنى عليهما، ذكر من كان أشدّ ابتلاء منهما، وأنه كان في غاية الصبر، بحيث أثنى الله عليه بذلك"[49].

ومناسبة ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام بعد قصة أيوب بشكل مجمل لأمرين اثنين:

الأمر الأول: أنهم أصول بني إسرائيل المباشرون ومن ثمَّ ذكرهم يمثل هذا الجانب في موضوع النسب، وهم كذلك أصول الأنبياء الذين ابتلوا بالملك والحكم، والذين ابتلوا بالمرض كذلك.

الأمر الثاني: أنهم كانوا صابرين، فمن المناسب بعد ذكر قصة أيوب الصابر أن يذكر طائفة من الأنبياء الذين صبروا كذلك على أنواع من البلاء بشكل مجمل دون تفصيل، يقول البقاعي: "ولما ذكر سبحانه من ابتلاه في بدنه وماله وولده ثم جعل له الماء برداً وسلاماً وعافية ونظاماً وشفاء وقواماً، عطف عليه من ابتلاه بالنار على أيدي الجبابرة فجعلها عليه برداً وسلاماً باعتماده عليه وصبره لديه، ونجاه من كيدهم، وجعل أيده بمفرده فوق أيدهم، ثم ابتلاه بالهجرة لوطنه وأهله وعشيرته وسكنه، ثم بذبح ابنه، فصبر على ذلك كله، اعتماداً على فضل الله ومنّه"[50].

ومن المناسب أن يذكر طائفة من الأنبياء يكونون كالختام لهؤلاء الأنبياء، وعلى رأسهم أبونا إسماعيل عليه الصلاة والسلام الأصل المباشر لخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلوات ربي وسلامه عليه، ليكون الختام مناسباً للنبي الخاتم، والله أعلم.

المبحث الثالث

ترتيب الأنبياء في السورة القرآنية.

السورة القرآنية هي ذلكم الكم الدلالي والمعنوي الذي نُسق وفق موضوع محوري رئيس واحد، ولذلك نجد أن علماءنا – رحمهم الله تعالى – شبهوا السورة "بسور

المدينة لإحاطتها بأياتها، واجتماعها – كاجتماع البيوت – بالسور، ومنه السوار لإحاطته بالساعد"[51]، فالسورة تحيط بجميع الدلالات التي تخدم هدفاً موضوعياً واحداً، وترتيب الأنبياء في السورة الواحدة يخدم الموضوع الذي لأجله نُظمت السورة على ما نُظمت عليه، "فمن المؤكد أن القصص إنما يرد في سياق السورة ليؤدي وظيفته فيه، وقَلَّ أن ترد قصة بكل حلقاتها في سورة واحدة، وإنما يأتي في سياق كل سورة من حلقاتها ما يناسب موضوع السورة ومحورها وأهدافها"[52]، فترتيب الأنبياء في السورة القرآنية إنما يدور حول موضوع محوري بما يخدم الدلالات المعنوية والسياقية، فيكون للترتيب دلالة خاصة نستطيع أن نسجلها من خلال بحثنا هذا فنقول: "دلالة الترتيب" مصطلح يُقصد به المعاني المستنبطة من خلال ترتيب القصص أو الحقائق القرآنية، ومن ثمَّ نستطيع أن نقسمه إلى قسمين:

1- **دلالة الترتيب العام.**

2- دلالة الترتيب القصصي.

وقد رأينا في المبحث الأول أن القرآن رتب ذكر الأنبياء وفق الترتيب الزماني، وهدف ذلك تعداد الأنبياء لغاية ومقصد يحدده السياق، بينما في المبحث الثاني وجدنا أن الأمر جاء على وفاق آخر، فكان الأغلب الترتيب الموضوعي، أما في هذا المبحث فالأمر جاء مختلفاً عن المبحثين السابقين تماماً، فلم يأت في القرآن الكريم إلا موضعان اثنان، أحدهما زماني وهو ما ورد في سورة الأعراف، والثاني موضوعي وهو ما ورد في سورة الشعراء.

أ- الترتيب الزماني:

وتمثله سورة الأعراف فهي تتحدث عن تاريخ العقيدة، والتاريخ النبوي مع الذين تصدوا لهذه العقيدة[53]، والملاحظ على ترتيب الأنبياء في هذه السورة مجموعة من الأمور أذكرها على شكل نقاط مختصرة:

1- تبدأ السورة – بعد المقدمة – من لدن آدم عليه الصلاة و السلام، مروراً بنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام، وختاماً بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، على طريقة خطابه عليه الصلاة وأتم التسليم، لا بذكر قصته، ومن ثمَّ فالسورة تناولت المبدأ والختام، وهذا لم يكن لسورة في القرآن كهذه السورة.

2- التركيز على الأنبياء العرب، وأنبياء من غير أنبياء بني إسرائيل.

3- التركيز على أنبياء بعثوا إلى أماكن متقاربة من جهة، وقريبة من الجزيرة العربية من جهة ثانية، وهم معروفون لدى العرب من جهة ثالثة.

4- لم يذكر من أنبياء بني إسرائيل إلا كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام، وذلك له سببه، وهو الاعتبار من قصته مع قومه بما يتناسب مع حال الأمة القرآنية، ونلحظ كذلك بالإضافة لما تقدم "أن الأسلوب الذي جاءت به قصة موسى يختلف عن القصص السابق؛ فأولاً جاءت القصص السابقة: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾، ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾، ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾، ﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾، ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾، أما هنا: {ثم بعثنا} فالفرق من جهتين:

الأولى: {ثم} الدالة على التراخي، وقد يكون تراخياً زمانياً؛ لأن موسى عليه السلام متأخر عنهم، وقد يكون تراخياً في الرتبة فهو ترتيب تصاعدي؛ لأن رسالة موسى عليه السلام كانت لفئتين.

الثانية: ذكر كلمة البعث دون الرسالة، فهي تدل على أكثر مما تدل عليه كلمة إرسال؛ لأنه – أي: البعث – إنما يكون في الأمور المهمة، والمتأمل لورود هذه الكلمة في القرآن يدرك ذلك، ويكفي إطلاقها على بعثة النبي عليه وآله الصلاة والسلام"[54].

5- نجد أن السورة التزمت الترتيب الزماني للأنبياء دون تقديم أو تأخير، ونجد تركيزاً واسعاً على قصة موسى عليه الصلاة والسلام.

6- في نهاية كل قصة نجد عذاب الأقوام الذين تصدوا لدعوة الأنبياء والمرسلين، وذلك ابتداءً من قصة آدم عليه السلام وامتناع إبليس من السجود له، وما حصل له من الطرد، إلى خطاب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في التوعد بمن خرج عن القرآن وهدايته بما يحل عليه من عذاب شديد يوم القيامة.

7- لم تذكر سورة الأعراف قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مع أنه معروف لدى العرب بل أشهرهم على الإطلاق، وذلك لوضوح قصته في أذهانهم من جهة، ومن جهة ثانية فإن أقوام الأنبياء المذكورين في السورة قد عذبوا جراء تكذيبهم والقرآن لم يذكر لنا عذاب قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام تفصيلاً[55]، وسورة الأعراف أرادت في الزمن الذي نزلت فيه أن تُلوِّح بعصا العذاب لكل من كفر وعاند من قريش، فكان المناسب عدم ذكر قصة إبراهيم عليه السلام من هذه الزاوية.

ومن ثمَّ فالسورة تركز على تاريخ العقيدة من خلال أولئك الأنبياء الذين يعرفهم العرب أكثر من غيرهم من الأنبياء، وهذا بلا شك يبين أثر المخالفين والخارجين عن عقيدة التوحيد على مر العصور المختلفة.

ب- الترتيب الموضوعي

سورة الشعراء

هذه السورة المكية متشابهة من حيث ذكر الأنبياء مع سورة الأعراف، إلا أنها ذكرت إبراهيم عليه السلام فيما لم نجد له ذكراً في سورة الأعراف، وكذلك نجد في الأعراف ذكراً لآدم عليه السلام، بخلاف سورة الشعراء، والفرق الآخر أنها اختلفت عن سورة الأعراف في التقديم والتأخير، فبينما وجدنا سورة الأعراف قد التزمت الترتيب الزماني نجد الأمر هنا مختلفاً فقد تقدم ذكر موسى عليه الصلاة والسلام على بقية الأنبياء، ثم جاء ذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذان الرسولان قد تقدم ذكرهما على بقية الأنبياء الذين كان منهم من تقدم عليهم زمانياً، يقول صاحب "الظلال": "والقصص في هذه السورة لا يتبع الخط التاريخي؛ لأن العبرة وحدها هي المقصودة، فأما في سورة الأعراف مثلاً فقد كان الخط التاريخي مقصوداً، لعرض خط وراثة الأرض، وتتابع الرسل من عهد آدم عليه السلام، فمضى القصص فيها يتبع خط التاريخ، منذ الهبوط من الجنة، وبدء الحياة البشرية"[56].

وقد قام صاحب البحر بتقديم جواب حول سر الابتداء بقصة موسى عليه الصلاة والسلام، قبل غيره ممن تقدمه من الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، فقال – رحمه الله تعالى –: "ولما ذكر تكذيب قريش بما جاءهم من الحق وإعراضهم عنه، ذكر قصة موسى عليه السلام، وما قاسى مع فرعون وقومه؛ ليكون ذلك مسلاة لما كان يلقاه عليه الصلاة والسلام من كفار قريش، إذ كانت قريش قد اتخذت آلهة من دون الله، وكان قوم فرعون قد اتخذوه إلهاً، وكان أتباع ملة موسى عليه السلام هم المجاورين من آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم، بدأ بقصة موسى، ثم ذكر بعد ذلك ما يأتي ذكره من القصص"[57].

ويقول ابن عاشور – رحمه الله تعالى –: "وإنما ابتدىء بذكر قصة موسى ثم قصة إبراهيم على خلاف ترتيب حكاية القصص الغالب في القرآن من جعلها على ترتيب سبقها في الزمان لعلَّه؛ لأن السورة نزلت للرد على المشركين في إلحاحهم على إظهار آيات من خوارق العادات في الكائنات زاعمين أنهم لا يؤمنون إلا إذا جاءتهم آية؛ فضرب لهم المثل بمكابرة فرعون وقومه في آيات موسى"[58].

ونستطيع أن نبني على ما تقدم أن الابتداء بقصة موسى عليه السلام لأنها الأشد مشابهة بما هو عليه عليه الصلاة والسلام، فالشرك قائم في المجتمعين، وكذلك التصدي لعقيدة التوحيد والداعي لها، فكان ذكر

قصته تسليةً للنبي عليه الصلاة والسلام، وتهديداً لمن خرج وهاجم الدعوة القرآنية، وكذلك هي خطوة استباقية لمن يزعم اتباعه لموسى عليه السلام.

ولما أتم سبحانه ما أراده من ذكر قصة موسى عليه السلام، أتبعها بذكر قصة إبراهيم عليه السلام رحمة بنيه عليه الصلاة والسلام، لما يجمعه بأبيه إبراهيم من مقارعة قومه في التصدي لدعوة الإيمان، وذلك أن إبراهيم أعظم آباء العرب فيكون ذلك داعياً وحاملاً على تقليده إن كانوا مقلدين للآباء، وزاجراً عن تسفيه آبائهم في عبادتها[59].

وعن سر تقديم هذين الرسولين من أولي العزم يجيبنا ابن عاشور – رحمه الله تعالى – جواباً شافياً، فيقول: "وقدمت – أي: قصة إبراهيم عليه السلام – هنا على قصة نوح على خلاف المعتاد في ترتيب قصصهم في القرآن؛ لشدة الشبه بين قوم إبراهيم وبين مشركي العرب في عبادة الأصنام التي لا تَسمع ولا تبصر، وفي تمسكهم بضلال آبائهم، وأن إبراهيم دعاهم إلى الاستدلال على انحطاط الأصنام عن مرتبة استحقاق العبادة ليكون إيمان الناس مستنداً لدليل الفطرة، وفي أن قوم إبراهيم لم يسلّط عليهم من عذاب الدنيا مثل ما سلط على قوم نوح وعلى عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين فأشبهوا قريشاً في إمهالهم.

فرسالة محمد وإبراهيم صلى الله عليهما قائمتان على دعامة الفطرة في العقل والعمل، أي: في الاعتقاد والتشريع، فإن الله ما جعل في خلق الإنسان هذه الفطرة ليضيعها ويهملها بل ليقيمها ويعملها، فلما ضرب الله المثل للمشركين لإبطال زعمهم أنهم لا يؤمنون حتى تأتيهم الآيات كما أوتي موسى – فإن آيات موسى وهي أكثر آيات الرسل السابقين لم تقض شيئاً في إيمان فرعون وقومه لما كان خُلُقُهم المكابرة والعناد – أعقب ذلك بضرب المثل بدعوة إبراهيم المماثلة لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم في النداء على إعمال دليل النظر "[60].

وبعد الانتهاء من قصتي موسى وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام اللتين حققتا أهدافهما بتسلية النبي عليه الصلاة والسلام وبيان سوء صنيع المشركين وأنهم على ضلال مبين، كرَّ القرآن عليهم بقصص السابقين زيادةً في توثيق المعاني المتقدمة في قصتي موسى وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فبدأ بقصة الأب الثاني للبشرية نوح عليه الصلاة والسلام، "ولما أتم سبحانه قصة الأب الأعظم الأقرب، أتبعها ... قصة الأب الثاني، مقدماً لها على غيرها، لما له من القدم في الزمان، إعلاماً بأن البلاء قديم؛ ولأنها أدل على صفتي الرحمة والنقمة التي هي أثر العزة بطول الإملاء لهم على طول مدتهم ، ثم تعميم النقمة مع كونهم جميع أهل الأرض"[61].

وهكذا تمضي السورة مع طائفة من الأنبياء ملتزمة ترتيبهم الزماني ابتداءً من نوح مروراً بهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام، وجميع هؤلاء الأنبياء يعرفهم العرب معرفة كبيرة، ومن ثمَّ كان ذكرهم وذكر أقوامهم وما آل إليه حالهم من التعذيب خادماً لموضوع السورة في رفع وتيرة التنبه واليقظة في حس العربي المشرك عند تصديه للدعوة المحمدية، ولذا كان ختام السورة بخطاب النبي صلوات ربي وسلامه عليه قائلة له: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195)﴾، محققةً الهدف الذي لأجله نزل القرآن، وهو إنذار الناس كي لا ينزل بهم من العذاب ما نزل بغيرهم من الأقوام السابقة فتحصل العبرة ويتحقق الاعتبار.

الخاتمة

1- للترتيب دلالة خاصة نستطيع أن نسجلها من خلال بحثنا هذا فنقول: "دلالة الترتيب" مصطلح يُقصد به المعاني المستنبطة من ترتيب القصص أو الحقائق القرآنية، ومن ثَمَّ نستطيع أن نقسمه إلى قسمين:

1- دلالة الترتيب العام، والمقصود به ترتيب الحقائق أو الأحداث.

2- دلالة الترتيب القصصي، وينقسم إلى قسمين:
أ- دلالة الترتيب القصصي العام.
ب- دلالة ترتيب الأنبياء.

2- يرد هذا البحث على كل من يزعم أن القرآن لم يلتزم منهجاً واضحاً في التعامل مع القصة القرآنية، وأنه ذكر الأنبياء على ترتيب غير منتظم.

3- في هذا البحث رد ضمني على كل من يخضع القصة القرآنية لمناهج ابتكرها النقاد الغربيون، فأضحت القصة القرآنية عندهم محل نقد، وبالتالي فهي مستوفية الشروط عند طائفة وغير مستوفاة عند أخرى، وذلك ضمن مقاييسهم الخاصة في القصة[62].

4- ترتيب الأنبياء في القصص القرآني على ثلاث مستويات؛ في آية واحدة، وفي مقطع قرآني، وفي سورة قرآنية.

وقد سار القرآن في بيان هذه المستويات ضمن مسارين اثنين؛ المسار الزماني والمسار الموضوعي.

5- ركز القرآن في ترتيب الأنبياء ضمن المسار الزماني على المستوى الأول وهو ترتيب الأنبياء في آية واحدة، وذلك لغرض تعداد الأنبياء وذكرهم لتثبيت حقيقة قرآنية يحددها موضوع السورة.

6- بينما نرى أن تركيزه على المستوى الثاني كان ضمن المسار الموضوعي؛ وذلك لأن المقطع القرآني يعالج قضية من القضايا، ويدور حول موضوع من الموضوعات، وعليه فالمسار الموضوعي هو الأقرب للمراد.

7- كانت دلالة الترتيب في السورة القرآنية متقاربةً من حيث المسار الزماني والمسار الموضوعي؛ وذلك لأن المسارين يحددان طبيعة الموضوع الذي تدور حوله السورة، وسلك في كل سورة المسار الذي يحدد بدقة طبيعة محاورها وموضوعها.

الهوامش:

(1) سبحاني، محمد عناية الله أسد، **إمعان النظر في نظام الآي والسور**، دار عمان، عمان الأردن، ط(1)، 2003، ص204-205.

(2) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، **العين**، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج8، ص115.

(3) إبن فارس، أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط(2) 1998، س441.

(4) الزمخشري، محمود بن عمر، **أساس البلاغة**، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ص153.

(5) أحمد ، أحمد بن حنبل، **المسند**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت – لبنان، مؤسسة الرسالة، ط(1)، 1999م، ج29، ص441.

(6) مسلم، مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، الرياض – المملكة العربية السعودية، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، ط (1) 1419هـ-1998م، كتاب: **الفرائض**، باب: ميراث الكلالة: حديث رقم: (9).

(7) الباقلاني، محمد بن الطيب، **الانتصار لصحة نقل القرآن والرد على من نحله الفساد بزيادة أو نقصان**، تحقيق: محمد عصام القضاة، عمان – الأردن، دار الفتح للنشر والتوزيع، ط1، 1422ه2001م، ج1، ص59-60.

(8) مكي، مكي بن أبي طالب، **مقدمتان في علوم القرآن** – وهما مقدمة كتاب المباني، ومقدمة ابن عطية –، تحقيق ونشر: آرثر جفري، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، ط1، 1954، ص276.

(9) قال ابن الجوزي: "هو جَمْعُ العسيبِ وهو سَعَفُ النَّخْلِ"، يُنظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، **غريب الحديث**، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ط (1)، 1985م، ج2، ص94.

(10) جاء في **القاموس المحيط**: "اللخاف ككتاب: **حجارة بيض رقاق**، واحدها لَخفة بالفتح" يُنظر: **الفيروز آبادي**، محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، الرياض – المملكة العربية السعودية، بيت الأفكار الدولية، ص1560.

(11) البغوي، الحسين بن مسعود، **شرح السنة**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت – لبنان، المكتب الإسلامي، ط1، 1400هـ1980م، ج4، ص519-523.

(12) الرازي، محمد بن عمر، **التفسير الكبير**، بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420هـ1999م، ج3، ص106.

(13) الغرناطي، أحمد بن إبراهيم، **البرهان في تناسب سور القرآن**، تحقيق: سعيد الفلاح، 1408هـ – 1988م، ص73.

(14) الزركشي، محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، ط(2)، ج، 1ص256.

(15) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمود أحمد القيسية، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، مؤسسة النداء، ط1، 1424هـ2003م، ج1، ص284.

(16) الخازن، علي بن محمد، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، بيروت – لبنان، دار الفكر، 1399هـ – 1979م، ج1، ص376.

(17) طنطاوي، سيد طنطاوي، **التفسير الوسيط**.

(18) ابن عطية، عبد الحق بن غالب، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ط(1)، 1413هـ – 1993م، ج1ص485.

(19) الملاحظ على الآية أنه قد حصل تغاير في التعبير في كل جهة من هاتين الجهتين، فعبر في الأولى بالإنزال، بينما في الثانية بالإيتاء، وذلك لأمرين اثنين فيما يظهر لي والله أعلم بما ينزل:

الأمر الأول: سياقي، وهو ما ورد ذكره في سباق سياق الآية حديثاً عن النبيين في أخذ الميثاق حيث قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ [81] فقال تعالى: {لما آتيتكم} ولم يقل: {لما أنزلت عليكم}؛ فلأجل هذا التعبير في موضوع الميثاق كانت إعادته بمعانيه وحروفه – لا بمعانيه فحسب – هو الأولى والأدنى للتذكير بميثاق النبيين الذي أُخذ عليهم، فهو إذن تذكير خاص لمن يدعي أنه على هدى موسى وعيسى عليهما السلام، فكأن الحق يقول لهم: إن هؤلاء المؤمنون يؤمنون بما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم، ومما أوتي موسى وعيسى والنبيون الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ونصرته، فإن كنتم أتباعاً لهم كما تزعمون فآمنوا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، فلأجل هذا أتى بالإتيان دون الإنزال، والله أعلم.

الأمر الثاني: تاريخي عقدي، وهو ما أوتيه موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام من المعجزات الظاهرة، وكذلك الآيات نزلت في مناقشة اليهود والنصارى، وهم يزعمون اتباعهم لموسى وعيسى على شكل الخصوص، فكان تخصيصهما بالإيتاء دون الإنزال لهذا الملحظ، يقول أبو السعود: "{وَمَا أُوتِيَ موسى وعيسى} من التوراة والإنجيلِ وسائرِ المعجزاتِ الظاهرةِ بأيديهما كما يُنبىء عنه إيثارُ الإيتاءِ على الإنزال الخاصِّ بالكتاب، وتخصيصُهما بالذكر لما أن الكلامَ مع اليهود والنصارى"؛ فهي لفتة تاريخية عقدية وتنبيه على سوء الاقتداء؛ فإذا كانوا غير متبعين للأقرب فمن باب أولى أن يكونوا مخالفين للأبعد، بخلاف المسلمين الذين عليهم أنزل القرآن، فهم مؤمنون بجميع الأنبياء والمرسلين، لا يفرقون بين أحد منهم كما صنع غيرهم؛ فيكون قوله تعالى: {لا نفرق بين أحد منهم} من قبيل التعريض بمن فرق، والله أعلم.

ويكون الترتيب الزماني في ذكر الأنبياء في هذه الآية، له ما له من تقرير معاني العقيدة، وإلجام الخصم الحجج العقلية بالأسلوب القرآني الفريد.

(20) نوفل، أحمد إسماعيل، **سورة يوسف دراسة تحليلية**، دار الفرقان، عمان – الأردن ط(1)، 1989م، ص389.

(21) القضاة، أمين القضاة وآخرون، **أديان وفرق**، عمان – الأردن، مكتبة الأقصى، ط(1)، 1990م، ص17.

(22) وذلك ما ورد في حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن

الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام"، يُنظر: **البخاري**، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، الرياض – المملكة العربية السعودية، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، ط(1)، 1419هـ1998م، كتاب: **الأنبياء** باب: {أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت} حديث رقم: (3202).

(23) الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشاف**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، ج3، ص533.

(24) "**الالتفات:** هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، أعني من التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها بعد التعبير الأول" يُنظر: **الكفوي**، أيوب بن موسى، الكليات، بيروت – لبنان، مؤسسة الرسالة، ط(2)، 1998م، ص169.

(25) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج8، ص25.

(26) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، **التحرير والتنوير**، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط(1)، 1420هـ، ج25، ص119.

(27) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، ج2، ص55.

(28) سبق بيان ذلك في هذا البحث.

(29) قطب، **في ظلال القرآن**، ج5، ص2627–2727.

(30) كما هو ملاحظ أنه لم يذكر الأنبياء وإنما اكتفى بالإشارة إلى أقوامهم المعذبين، ولذلك يبقى الترتيب زمانياً وإن أشار إلى قومي صالح وهود عليهما السلام.

(31) البقاعي، إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ج2ص55.

(32) البغوي، الحسين بن مسعود، **معالم التنزيل**، تحقيق: عثمان جمعة ضميرية وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط(4)، 1417هـ، ج2، ص310–311.

(33) أي: قوله تعالى: {وأوحينا إلى إبراهيم} فلم يقل: وإبراهيم.

(34) الآلوسي، أبو الفضل محمود الآلوسي، **روح المعاني**، بيروت – لبنان، دار إحياء التراث، ج6، ص16–17.

(35) أبو حيان، محمد بن يوسف، **البحر المحيط**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ط(1)، 2001، ج3، ص413.

(36) الآلوسي، **روح المعاني**، ج6، ص17.

(37) ابن عجيبة، احمد بن محمد، **البحر المديد**، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ط(2)، 2002، ج2ص184، ويُنظر: **البيضاوي**، عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت – لبنان، دار الفكر، ج2، ص280.

(38) الرازي، **التفسير الكبير**، ج5، ص52–53.

(39) رشيد رضا، محمد رشيد رضا، **تفسير القرآن الحكيم المعروف بتفسير المنار**، بيروت – لبنان، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط (2)، ج7ص587.

(40) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج،6ص199–200.

(41) الغزالي، محمد الغزالي، ن**حو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم**، القاهرة – مصر، دار الشروق، ط(5)، 2002م، ص242.

(42) ومصداق ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124)}.

(43) جاء في فتاوى السبكي: "قال الشيخ الإمام رحمه الله: نكتة بيضاء لمحتها من غير أن أسمعها من أحد قوله تعالى: {واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد} الآية فكرت من مدة طويلة وأنا بديار مصر في إفراده عن أبيه وأخيه والفصل بينهما بقصة موسى عليه السلام فوقع في خاطري أنه لكونه جد النبي صلى الله عليه وسلم فذكر مستقلا بنفسه تعظيما لقدر النبي صلى الله عليه وسلم وفكرت الآن

فيه بالتلاوة فلمحت ذلك وزيادة عليه وهي الصفات التي أثنى عليه بها، ومن جملتها وهو ختامها {وكان عند ربه مرضيا} والمرضي عند الله هو الصفوة والخلاصة والنبي صلى الله عليه وسلم مصطفى منه، ومن جملتها {وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة} وإذا كان أهله بهذه الصفة وهو بصفة صدق الوعد والرسالة والنبوة وهما أعني إسماعيل عليه السلام وأهله أصلا في غاية الزكاء والخير فهو وأهله جرثومة نور نشأ منها أعظم منها وهو النور الأعظم خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم" يُنظر: السبكي، تقي الدين علي بن عبد الكافي، فتاوى السبكي، بيروت – لبنان، دار المعرفة، ج1، ص68.

(44) البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج5، ص100.

(45) أبو حيان، **البحر المحيط**، ج7، ص78.

(46) البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج5، ص409، والمقصود بالقصة الأولى قصة موسى عليه السلام مع قومه، فكفر فرعون وقومه وهم الأباعد، وآمن قوم موسى وهم الأقارب، والقصة الثانية قصة داود وسليمان عليهما السلام، فقد آمنت بلقيس بسليمان عليه السلام وقد كانت من الأباعد، والقصة الثالثة قصة صالح عليه السلام، فقد انقسم قوم صالح إلى فريقين، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، والقصة الرابعة قصة لوط عليه السلام، وقد عذبوا بالغرق بسبب العصيان، وقد وقعت عليهم عقوبة قوم نوح وهي الغرق، وفي هذا الإشارة: "كما بلغ الأولين الماء فكان فيه التواء"، أي عود على بدء فكما كان للمتقدمين من العذاب كان للمتأخرين، والله أعلم.

(47) البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج6، ص399.

(48) الرازي، **التفسير الكبير**، ج9، ص356.

(49) أبو حيان، **البحر المحيط**، ج7، ص383.

(50) ابن عاشور، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج، 6ص391.

(51) الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج، 1ص264.

(52) أبو زيد، أحمد أبو زيد، **التناسب البياني في القرآن** دراسة في النظم المعنوي والصوتي، 1992، ص67.

(53) يُنظر: قطب، سيد قطب، **في ظلال القرآن**، بيروت – لبنان، دار الشروق، الطبعة الحادية عشرة الشرعية، 1985م، ج3، ص1245.

(54) عباس، فضل حسن عباس، **قصص القرآن الكريم**، عمان – الأردن، دار الفرقان، ط(1)، 2000م، حاشية صفحة 510.

(55) فقد وردت إشارتان الأولى في سورة الصافات: {فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين}، والثانية في سورة الأنبياء: {وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين}.

(56) سيد، **في ظلال القرآن**، ج5، ص2600.

(57) أبو حيان، **البحر المحيط**، ج، 7ص7.

(58) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج19، ص118.

(59) يُنظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج5، ص366.

(60) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج19، ص148.

(61) البقاعي، **نظم الدرر**، ج5، ص373.

(62) يُنظر: البيومي، محمد رجب، **البيان القرآني**، الدار المصرية اللبنانية، ط(1)، 2001م، ص146.